- ترجمات العدد:

محاسن التأثيل ومحاذيره

بقلم: **فرانسوا ميلر**
(François Muller)

ترجمة : الدكتور منتصر أمين عبد الرحيم[1]
خالد اليعبودي[2]

ما الجدوى من علماء الفيلولوجيا في زمن التعاسة؟

انطلقت الشرارات الأولى للتأثيل مع أفلاطون الذي جعل اللغويات التاريخية في الأوج لأزيد من قرن من الزمن، غير أن جهوده لم تجد في كل الأحيان آذانا صاغية حينئذ بالنظر إلى الزوايا التقنية للتأثيل، لا سبيل إلى اختلاق علم فيلولوجي، وإن تمّ الأمر، يبقى السؤال القائم بخصوص دوره في اكتساب اللسانين الأول والثاني. فبين التقيّد بالتأثيل في كل الخطى والمراحل واستبعاده كلية يبقى هناك سبيل أوسط يَتَّسِمُ بالنجاعة والواقعية.

1 - حدود التأثيل ومساراته:

يرى "جيل. ماروزو" أن التأثيل: "علم انتساب الكلمات بعضها ببعض. إنه في تصور الأقدمين : البحث عن المعاني الحقيقية للكلمات. (الأصل التأثيلي [étymon] باصطلاح الإغريق القدامى). وهو في تصور المحدثين إعادة تشكيل تاريخ الكلمة من الفترة الراهنة إلى أقدم استعمال ممكن".[3]

مرّت أربعة عقود، ولم يُضف "هنري بونارد" (Henri Bonnard) شيئا جديدا إلى هذا التعريف، حينما اعتبر "التأثيل": "علما موضوعه البحث عن أصل كلمات لسان ما وإعادة رسم مساراتها"[4]، في حين خصّص "ديبوا" (Dubois) (1973) صفحتين من "قاموس اللسانيات" لمدخل "التأثيل"، ولا أثر له في "قاموس تعليمية الألسن" (Dictionnaire de didactique des langues) ل "جاليسون وكوسط" (Galisson & Coste) (1976)، إذ لا يوجد به سوى صيغة نعتية "تأثيلي" (Etymologique) حينما تطرّقا ل "الترتيب التأثيلي" في ارتباطه ببعض أصناف القواميس، ولا شكّ أن تعريف "بوسمان" (Bussmann) في قاموسه اللساني هو الأشمل (والأكثر كفاية) في قوله: إن التأثيل "علم الأصل، يعنى بالمعنى الأساسي للكلمات منعزلة عن السياق، وبتطوراته (الدلالية والصورية)، وعلاقات هاته الكلمات بما يناظرها من كلمات تشترك معها في الأصل بألسنة متعددة"[5].

1- جامعة الطائف، المملكة العربية السعودية

2- كلية الآداب، الرباط- المغرب.

3 -Marouzeau, Lexique de la terminologie linguistique, 1933.

4 - Grand Larousse de la Langue Française, 1972.

5 - Wissenschaft von der Herkunft, Grundbedeutung und (semantischen und formalen) Entwicklung einzelner Wörter sowie von ihrer Verwandschaft mit Wörtern gleichen Ursprungs in verschiedenen Sprachen – Lexikon der Sprachwissenschaft, 1983 ; 1996.

يُعتبر من الناحية التاريخية "بانيني" (Panini) (عاش في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد وبداية القرن الرابع قبل الميلاد) أول لغوي يعنى بالتأثيل، فقد لجأ في كتابه الذي سماه "Ashtad Hyayi" (بمعنى: الفصول الثمانية) إلى التمييز بين الجذور (: الأصول) والزوائد، وعمدَ إلى تحليل الكلمات بالاستناد إلى معايير تأثيلية.

أما في اليونان القديمة، فقد عرضَ "أفلاطون" (Platon) تصوّره عن التأثيل متأثرا برؤى "سقراط" (Sokrate) في محاوراته "الكراتيل" (Cratyle)، لكن ما دافع اهتمام "أفلاطون" بالتأثيل؟ الجواب بكل بساطة: أن التأثيل محوريّ في معرفة الطبيعة الأصلية للأشياء، الموضوع الأساس للفلسفة. وكما ورد ب"الكراتيل": "حينما نعرف الأسماء نعرف الأشياء1". (ويحمل الحوار عنوان: "دقة الكلمات").

تَمَثّلَ الشاغلُ الأساسُ ل"أفلاطون" في عرض مختلف زوايا المحاورة المرتبطة بموضوع الطابع التواضعي (: الاصطلاحي) أو الطبيعي للكلمات. جليّ أن انشغال "أفلاطون" بموضوع اللغة لا صلة له باللسانيات (العلم الذي لم ير النور بعد عصر ازدهار الفلسفة الإغريقية). لذلك لا جدوى من التمحّل في استخلاص رؤية علمية للموضوع بهذا النص الشهير، ولطالما تندّر المتابع لهذه المحاورة بمطالعته التأثيلات المُتخيّلة لدى "أفلاطون"، مثال ذلك أن كلمة "héro" (:بطل) – كما يرى "سقراط"- بإحالته على "hésiode" مأخوذةٌ من "éros" (:شبق) بدعوى أنّ الأبطال خُلقوا نتيجة تعاظل الآلهة، كما يربط ذات الكلمة بفعل " ëiréÎn" الدال على "الكلام"، مستخلصا أنّ الأبطال أبلغُ الخُطباء.

لم يصلنا من كتاب "فارون" (Varron): "اللسان اللاتيني" (Lingua Latina) (الذي يشمل في الأصل خمسة وعشرين جزءا) سوى ستة أجزاء من الجزء الخامس إلى الجزء العاشر. يعالج الكاتب في الأجزاء الثلاثة (الخامس والسادس والسابع) أصل الأسماء العامة وظروف المكان والزمان، ويفحص مليا في الأجزاء الموالية (من الثامن والتاسع والعاشر) مسائل اشتقاقية، مع الدعوة إلى التأليف بين القياس والسماع في عمليات تكوين الكلمات، وصاغ في هذا المضمار مصطلح "Déclinaison" [: التصريف] (Declinatio naturalis) في مقابل "الاشتقاق" (Dérivation) (Declinatio Volintaris:).

عاد مصطلح "تأثيل" للظهور مجدّدا بداية القرن السادس الميلادي بعنوان: منتخبات المعارف التراثية (غير المكتمل) التي جمعها "إيزيدور دي سيفيّي" (Isodore de Séville) (560-636م) [المشتمل على عشرين جزءا]، حين جعل "التأثيل" مرادفا ل "الأصل" (Originum Sive etymologiarum ; Libri : XX) .

عمد الكاتب إلى شرح أسماء الكلمات المفاتيح لموسوعته عبر اللجوء إلى تأثيلات غالبيتها خيالية (.وهمية)، وقد اعتنى كثيرا بتحليل الكلمة نظرا لقناعته بأنّ معرفة الكلمة هي السبيل الأمثل لإدراك جوهر الشيء: ألا يدلّ "الأصل التأثيلي" (étymon) على "الحقيقي" (authentique)؟

لقد أسهم "إيزيدور دي سيفيّ" إلى جانب "بُوِّيس"(Boèce) و"كاسيدور" (Cassidor) في نقل التراث القديم إلى العالم الجديد الذي أفرزته الفتوحات الكبرى. وبذلك كان له الأثر الكبير في الفكر بالعصر الوسيط، ما يُفسّر جزئيا استمرار حضور هذا التيار الفكري الذي نجد مثيلا له في "القبلانية" (Kabbale) [: التراث اليهودي المؤمن بالتأويل الصوفي والمجازي

[1] - Cratyle 435d.

للتوراة] القائم على فكرة اختفاء حقيقة الشيء داخل الكلمة وبالحروف المكوّنة لها، بل أكثر من ذلك فبإسناد رقم خاص للحرف، نتمكّن من تشكيل علم العدد (numérologie) المماثل لعلم التأثيل: ذلك أن أصالة الحرف ترتبط أشدّ الارتباط بالعدد[1] ، مصطلح تحيل أبرز سماته على الطابع التأويلي لفكّ الألغاز (décryptage) (يُنظر : "to decipher" في الأنجليزية، والفعل "ent-ziffern" والاسم "die chiffre" في الألمانية).

ظهرت في ألمانيا بالتحديد ما سمّاه مؤرّخ اللسانيات الألمانية "جاردت" (A.Gardt): "النزعة الصوفية في دراسة اللسان"[2]، وأبرز ممثلي هذا الاتجاه: "جوناس روشلين" (Reuchlin) و"جاكوب بويم" (Boehme).

يرى "جوناس روشلين" في هذا الصدد (1455-1522) أن الأسماء ليست رموزا اتفاقية (:تواضعية) مُدركَة ذاتيا؛ إنما تعكس بشكل موضوعي جوهر الأشياء. بذلك نتمكن من معرفة طبيعة الإله بشكل صحيح عبر تأليف الأسماء التي تعين جلالته. وليست "القبلانية" سوى رمزية دينية تعتبر الحروف والأسماء علامات للأشياء[3]. [يُنظر منظور متصوفة الإسلام من رمزية الأعداد في مكتوبات ابن عربي، والموسوعة الكسنزانية]

وقد مثّل ذروة الاتجاه الصوفي للعلامة كتاب "جاكوب بُويم" (1575-1624)، وقد سمّاه: "DE SIGNATURA RERUM" (:أصل كل الكائنات ومسمياتها) الصادر سنة (1621)، كما فَسَّرَ الفيلسوف "تيثونكيوس" (Teutonicus) بالكثير من التفصيل بأنّ الله خلق آدم على صورته، ولذلك فالإنسان قادرٌ على إعادة خلق العالم عبر جهاز اللغة بالربط المباشر بين الكلمة والشيء. وبذلك لا حاجة له بتعلم الألسنة الطبيعية، إنما يلزمه استكشاف سرّ الطبيعة العميقة للأسماء والأشياء، لأنّ الخالق وضع عليها بصمته (Signatura).

استمرّت الجامعة –إضافة إلى هذا الانزياح اللاعقلاني المفضي إلى طريق مسدود (وقد كان "بُوِيم" عصاميّ التكوين)- في تلقين الفنون الحرّة المتضمّنة للمعارف التراثية المرتبطة بالثلاثي (المنطق والبلاغة والنحو) والرباعي (الحساب ورياضيات الهندسة، والفلك والموسيقى). اندرج علم التأثيل ضمن النحو، وكان إلى جانب الإملاء والعروض والتركيب أحد ركائزه الرئيسة، وتفرّع إلى ثلاثة فروع: أقسام الكلم، التصريف ودراسة بناء الكلمة (الاشتقاق والتركيب).

لم يشكّل القرنان السادس عشر والسابع عشر الميلاديين في هذا المجال وفي مجالات أخرى (كالمنطق) قطيعة مع نهاية العصر الوسيط؛ إنما مثّلَ استمرارية للتصورات السالفة الذكر.

---

[1]- نقدم فيما يلي مثالا مقتبسا عن "القبلانية": "تلجأ غنوصية ماركوس إلى نفس الإجراء فيما يتصل بوصايا المسيح، المختزلة في حرفي "A " و "Ω "، ويتخذان شكل "الحمامة"، الروح القدس الموجود بداخله. إذ تأخذ الكلمة اليونانية "περιστερα " [:حمامة] رقم 801(π =80, ε = 5, ρ = 100, ι = 10, σ = 200, τ = 300, ε = 5, ρ = 100, α = 1)، يساوي الحرف "A ": 1، ويساوي الحرف " Ω ": 800، والمجموع 801. ما يجعل المسيح هو الروح القدس المتخذ شكل حمامة أثناء غسله بماء المعمودية. هذا الحساب العددي (:guematria) الذي يُحتمل استعماله من طرف "فيتاغوراس" (Pythagore) سيتعمم بشكل لا يخلو من طابع خرافي، لا سيما في مجال القبلانية التطبيقية"، يراجع:

- H. Sérouya, 1972, La Kabbale, PUF, Paris, p. 45.

[2] -Sprachmystik, Gardt, 1999, p. 150.

[3] -in qua […] litterae ac nomina sunt rerum signa. In : De arte cabalistica, Haguenau, 1517.

وظلت التوراة المرجع الأساس في التأملات المرتبطة بسلالات اللغات بالعودة دوما إلى العبرية في تفسير أصل الألسنة.

إذ أصدر "جيوم بوستل" (1510-1581) (Guillaume Postel) (المتخصّص في دراسة الألسنة السامية، وقد ذاع كتابه عن النحو العربي إضافة إلى مؤلفات أخرى) سنة 1538 كتابه: " De originibus seu de hebraicae lingua et gentis antiquitate, atque variarum linguarum affnitate" : "أصل اللسان العبري وقدم العبريين والقرابة القائمة بين مختلف الألسن" نعاين عبر هذا التصنيف الارتباط الوثيق بين المنهج المقارن والاهتمام بسلالات الألسنة في الدراسات التصنيفية للأسر اللغوية وذلك منذ عهد النهضة. إذ لم يتردّد الفيلولوجيون في سياق تثمين لسانهم الخاص من ربطه باللسان العبري.

بذل في هذا الإطار "جيامبولاري" (Giambullari) الكثير من الجهد للاستدلال على أن اللسان الفلورنسي (Florentin) مأخوذ عن اللسان الأتروري (éturisque)، المأخوذ بدوره عن العبرية، وأكّد الفلمندي "فان جورب" (Van Gorp) في كتابه " Origines Antwerpianae" بكل بلادة بأنّ لسان التوراة هو التيوتونية (Teutonique)، أي: الفلمندية.

مسألتان مترابطتان فيما بينهما سيُسهمان في تطوير التفكير اللساني على الرغم من أننا لم نسجّل أيّ منجز ذي أهمية بهذا العصر:

تخصّ المسألة الأولى طبيعة "لسان آدم": "أي اللسان الأصلي الذي تعكس فيه الأسماء طبيعة ‹الأشياء› بطريقة مضبوطة"[1] (وقد تطرّق أيضا كل من "روشلن" و"بويم" لهذا الموضوع).

ترتبط المسألة الثانية ب"اللسان الكوني" (Lingua universalis)

استهدف البحث في المسألتين إيجاد حلّ ناجع للعنة بلبلة الألسن عبر التقصي في طبيعة لسان ما قبل بابل، أو بالتوجّه نحو وضع لغة أنموذجية مثالية (Langue artificielle-parfaite).[2]

يرتكز كل مشروع على الآخر، إذ يرتبطان معا ب"مسألة التقنيات القادرة على إعادة تشكيل تأثيل الأسماء والتحقق من مدى الإحالة على الدلالة الحقيقية ل'الكلمة': وهو الموضوع الأبرز بالجدالات الدائرة بين فلاسفة القرن السابع عشر الميلادي سيعود إلى الظهور مجددا بلسانيات عصر الأنوار في إطار بحث تاريخي- إناسي أكثر شمولية ونقدية شبيهة بالجدالات التي ظهرت في بداية القرن التاسع عشر الميلادي باللسانيات التاريخية والمقارنة"[3].

---

1 -Lia Formigari, In : Auroux, 1992, p. 443.

وقد عمدنا إلى توسيم لفظة "الأشياء".

2- يُراجع بخصوص هاته الموضوعات:

Olender 1989, Les langues du Paradis,
Eco 1994, La recherche de la langue parfaite,
Auroux 1992,

لا سيما الفصل السادس.

3 -Lia Formigari, ibid.. وقد عمدنا إلى توسيم لفظة "الكلمة".

شهد التأثيل العلمي –كما نعرفه بأيامنا هاته- النور بداية القرن التاسع عشر الميلادي بعد مرور قرون من التعثرات والإخفاقات التعيسة1، وذلك حينما أثبت الدارسون أن السنسكريتية التي اكتشفتها أوروبا منذ القرن السادس عشر ليست أما لكل الألسنة؛ إنما هي أخت اللاتينية والإغريقية كما أوضح ذلك منذ سنة 1786 قاض بريطاني مُعيَّن بالهند: السير "آرثير جونز" (Arthur Jones)، غير أن المهمة العويصة في تحقيق النصوص القديمة وترجمتها لم تكن من طرف الإنجليز وإنما من طرف الألمان، لا سيما الرواد: الأخوان "شليغل" (Schlegel)، الأخوان "جريم" (Grimm)، و"هامبولدت" (W,Von, Humboldt) و"شلايشار" (A, Schleicher) و"فرانز بوب" (F, Bopp)[2]، يُضاف إليهم الدانماركي "راسك" (Rasque).[3]

ظهر مصنفان بارزان خُصِّصا لعلم التأثيل صنّفهما "بوت" (F, Pott)، يتعلق الأمر ب"دراسات تأثيلية للألسنة الهندو أوربية"، و"قاموس الجذور" (: الأصول) (Dictionnaire des racines).[4]

لم يكن فيلولوجيو الجيل الثاني من النحاة الجُدد مجرّد مقلّدين، أشهرهم الدانماركي "فيرنر" (Verner)[5] والغالبية من الألمان (ك "بروغمان" (Brugmann) و"دلبروك"

1- يُعتبر "القاموس التأثيلي" (Le Dictionnaire étymologique) أو "أصل اللغة الفرنجية" (Origine de la langue françoise) الذي صنفه "جيل ميناج" (1694) (Gilles Ménage) مثلا حيا عن هشاشة الأبحاث التأثيلية السائدة قبل القرن التاسع عشر.

2- تراجع الأبحاث التالية:

F. von Schlegel : Über die Sprache und Weisheit der Indier, 1808. (Sur la langue et -la sagesse des Indiens)

– W. von Schlegel : Observations sur la langue et la littérature provençales, 1818 (En français ; contre Fr. Raynouart).

– J. Grimm : Deutsche Grammatik, Teil I., 2. (1822),

لا سيما "قانون غريم" المرتبط بالتحوّل الصامتي.

F. Bopp : Über das Conjugaisons-system der Sanskritsprache in Vergleichung mit jenem der griechischen, lateinischen, persischen und germanischen Sprache. Frankfurt, 1816 (Du système de conjugaison de la langue sanscrite, comparé à celui de la langue grecque, latine, perse et germanique) ;

Vergleichende Grammatik des Sanskrit, Zend, Griechischen, Lateinischen, Litauischen, Altslawischen, Gotischen, und Deutschen. 1833- 1852. Traduction de M. Bréal : Grammaire comparée du sanskrit, du zend, grec, latin, lituanien, vieux-slavon, gotique et allemand

3 - R. Rask : Untersuchung über den Ursprung der alten nordischen oder isländischen Sprache, 1808

(: ملاحظات عن أصل اللسان النرويجي القديم أو اللسان الإيزلندي)

4 - Etymologische Forschungen auf dem Gebiet der indogermanischen Sprachen (1833) ; Wurzelwörterbuch, cinq volumes (1867-1873).

نشير كذلك إلى أنّ "بوث" (Pott) يعارض كلية توظيف الفيلولوجيا لغايات حزبية، وأخرى صوفية تتصل بأصل الألسنة والشعوب، وهو ما ساد بشكل كبير في ألمانيا منذ جهود "هيردير" (Herder)، يراجع في هذا الموضوع:

Anti-Kaulen : Oder mystische Vorstellungen vom Ursprung der Völker und Sprachen, 1863).

5- إنه صاحب القانون الذي يحمل اسمه، قانون يقنّن قانون "غريم"، ويحصر مجاله التطبيقي.

(Delbrük) و"بول" (H, Paul))[1]. وقد وسَّعوا مجالات أبحاثهم فأصبحت تشمل ألسنة أخرى، وركّزوا على الطابع "العلمي" للتأثيل.

صاغ "ليسكن" (Leskien) المتخصص في اللغات السلافية المقولة الشهيرة: "لا تعرف القوانين الصوتية حالات استثناء"[2]. ونشر "كورتيوس" (Curtius)(1820-1885) كتاب "أسس التأثيل الإغريقي"[3] من سنة 1858 إلى سنة 1862.

أمضى "دي سوسير" (De saussure) أربع سنوات في "ليبزغ" (Leipzig) من 1876 إلى 1880 تلقى بها محاضرات "بروغمان" و"كورتيوس"، ثم نشرَ بحثه "النسق البدائي للمصوتات في الهندوأوربية" سنة 1878، لحق بهؤلاء مجموعة من الفرنسيين أبرزهم "بورنوف" (Burnouf) و"بريال" (Bréal) والأخوان "دارمستتر" (Darmesteter) و"مايّي" (Meillet) و"فندريس" (Vendryes) وآخر الرواد من النحاة الجُدد الفرنسيين هو "بنفينست" (Benvéniste) الذي تقلّد منصب كرسي تدريس النحو المقارن ب"كوليج دي فرانس" إلى غاية 1869.

سُرعان ما ننسى بأن النحاة الجُدد قاموا بدور أساسي في نشأة اللسانيات الحديثة، فإضافة إلى الأسماء السالفة الذكر، نُذكّر بأنّ "بوهاس" (Boas) و"سابير" (Sapir) و"بلومفيلد" (Bloomfield) المقيمين في الولايات المتحدة الأمريكية من أصل ألماني، وهم على إلمام بأعمال الفيلولوجيين الألمان، بل تابع "بلومفيلد" محاضرات "بروغمان" و"ليسكن" في "ليبزغ" على غرار "تروبتسكوي" (Troubetzkoy).

من الواضح أن الركائز الرئيسة للبنيوية الأمريكية أنشِئتْ على يد النحاة الجُدد الأمريكيين من تلامذة المدرسة الألمانية. يذكر "بلومفيلد" في الفصل الأول من كتابه "اللغة" (Language) (1933) أشهر النحاة الجُدد الألمان، وكتب "روبير هال" (Robert Hall) محرر السيرة الذاتية ل"بلومفيلد": "يمكن اعتباره آخر تلامذة "ليسكن" و"بروغمان" وبالتالي نقطة وصل بين النحاة الجُدد لسنوات سبعينات القرن التاسع عشر واللسانيات الأمريكية أواسط القرن العشرين. لا مجال للشك أن هذه العلاقة عزّزت تبنّي "بلومفيلد" ل" فرضية النحاة الجُدد" (كما دأب على التصريح بذلك) المرتبطة باطراد التغيرات الأصواتية، وهي الفرضية التي دافع عنها عمّه "موريس بلومفيلد"[4].

1- تراجع في هذا الإطار الأعمال التالية:

-Brugmann / Osthoff : Morphologische Untersuchungen auf dem Gebiet der indogermanischen Sprachen, 1878 (Etudes morphologiques dans le domaine des langues i-e.)

– Delbrück/Brugmann : Grundriß der vergleichenden Grammatik der indogermanischen Sprachen, 1886-1893 (Abrégé de grammaire comparée des langues indo-européennes) (3 volumes)

– H. Paul : Deutsches Wörterbuch, 1896 (Dictionnaire allemand).

[2] - Ausnahmslosigkeit der Lautgesetze.

[3] - Grundzüge der griechischen Etymologie.

[4] - « He can thus be considered as one of the last pupils of Leskien and Brugmann, and therefore as a direct link between the « Junggrammitker » of the 1870's and American linguistics of the mid-twentieth century. Undoubtedly this contact would have strengthened Bloomfield's adherence to the « Neogrammarian hypothesis » (as

2- هل يُعتبر التأثيل علما قائما بذاته؟ ما علة النجاح الكبير للفيلولوجيا؟ وما سبب الإهمال الكبير الذي لقيته في أيامنا الراهنة إلى درجة فقد مصداقيتها؟ الإجابة بسيطة: إن سبب نجاحها هو ذاته علة استبعادها. يمكننا التأكيد دون أدنى مجازفة أن التأثيل هو العلم الأكثر علمية ضمن باقي العلوم الإنسانية (التي لا تحظى بهذه الصفة)، وقد سبق ل"بونار" (H, Bonnard) أن اعتبر التأثيل "أحد أبرز العلوم الإنسانية الأكثر اتساقا".[1]

على أي أساس استند هذا الحُكم؟ كانت الفيلولوجيا تصبو منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى أن تكتسب صفة علم قائم بذاته، بمعنى: تخصّص محكوم بقوانين كما هو حال الفيزياء أو الكيمياء. إنهم النحاة الجُدُد الذين حرصوا على هذه الصفة.

سبق ل"أوغست لوسكين" (August Leskien) (1840-1916) أن صاغ في أشهر كتاباته: "الإعراب بالألسنة السلافية-اللتوانية والجرمانية" مبدأ يقضي بأن القوانين الصوتية لا تعرف استثناءً، يقول في هذا الإطار: "إذا جاز لنا قبول انزياحات عشوائية لا تسمح بثبوت علاقات بينها، فلأننا نؤمن بأنّ موضوع البحث المتمثل في اللسان ليس موضوعا قابلا للإدراك بشكل علمي".[2]

كان "أوستوف" (Osthoff) (1847-1909) أكثر وضوحا في قوله: "على الرغم من قيمة الأبحاث الراهنة القائمة على منهاجية دقيقة فإننا نلاحظ بأن القوانين الأصواتية للألسنة تتصرّف بشكل عشوائي وفق الضرورة الطبيعية العشوائية، وبأنها لا تقبل لا استثناءات ولا تنازلات".[3]

ظلّ علم الأحياء هو النموذج الأمثل للفيلولوجيا، ولا حاجة لنا للتأكيد على الأثر العميق الذي أحدثه "داروين" (Darwin) بألمانيا بكتابه "أصل الأنواع" (The origines of species) الصادر سنة 1859، والمترجم إلى الألمانية سنة 1860. وقد حرّر "شلايشر" (A, Schleicher) سنة 1863 رسالته الشهيرة الموجّهة إلى عالم الأحياء "إرنست هيكل" (Haeckel) في موضوع علاقة الداروينية باللسانيات[4]، وقد انتشرت الداروينية أيضا بفرنسا دونما عناء، ودافع "الامارك" (Lamarck) عن فكرة التطورية ضدّ آراء "كوفيي" (Cuvier).

كتبَ "دارمستتر" (A, Darmesteter) في مقدمة كتابه (بل كما يتوضّح من العنوان): "حياة الكلمات" (La vie des mots): "لا يقتصر تحديد حياة دلالة ما على العودة إلى الأصل الأول للكلمة، وإنما إلى المعنى المتقدّم المفسِّر لها، فكما هو الحال في التاريخ الطبيعي: تحديدُ أصل فردٍ ما لا يقتصر على العودة إلى أصل النوع البشري، وإنما إلى الأفراد الذكور والإناث

---

he was wont to term it) of regularity in sound-change, which had already been upheld by his uncle Maurice. » A Life for Language, p. 15-16.

1- في مقدمة كتابه: " ملخص علم الأصوات التاريخي"("Synopsis de phonétique historique ")، ص: 5.

2 - Läßt man beliebige, zufällige, unter einander in keinen Zusammenhang zu bringende Abweichungen zu, so erklärt man im Grunde damit, daß das Objekt der Untersuchung, die Sprache, der wissenschaftlichen Erkenntnis nicht zugänglick ist. In : Declination im Slawisch-Litauischen und Germanischen, 1878.

3 - In : Das Verbum in der Nominal composition, p. 326.

4 - Sendschreiben an Haeckel über die Darwinsche Theorie und die Sprachwissenschaft.

الذين تناسل عنهم. سنجد بهذا التصنيف بعض المقارنات مع التاريخ الطبيعي. لم نرصد هذه التجاوزات عن قصد، وإنما برزت بشكل تلقائي بقلم الكاتب. وقد أفضت إلى هذه النتيجة أبحاث أنجزت طوال سنوات عديدة تخصّ تاريخ الألسنة الرومانية واللسان الفرنسي على نحو خاص [..] كما أسفر المذهب التحوّلي (Transformisme) عن بروز قانون التطور اللغوي. لم تسهم معارفه عن التاريخ الطبيعي في التأكيد على صحة نظريات داروين، وإنما سمحت بظهور نظريات حديثة. يظلّ المذهب التحولي في اللغة واقعا. تعتبر اللغة مادة صوتية يعمد الفكر البشري إلى تحويلها بشكل بارز ودون توقف تحت تأثير التنافُس الحيوي للانتخاب الطبيعي" (ص ص26-27).

يُفَسَّرُ الإهمال التدريجي للفيلولوجيا والتأثيل بالثورة شبه الكوبرنيكية التي تولّدتْ عن صدور "محاضرات في اللسانيات العامة" ل"دي سوسير" سنة 1916 المُرَجّب بدراسة تزامنية للغة في مقابل التعاقبية المهيمنة سلفا على يد النحاة الجُدُد.

أثار الباحث "روبنز" (Robins) سببا آخر بقوله: "بلغتْ نظرية النحو المقارن والتاريخي عتبة مقبولة لدى النحاة الجُدُد". بتعبير آخر: تمّ إنجاز الأهمّ، وإثبات صحة النتائج بالنظر إلى ارتكازها على قوانين شبه-علمية، من تمّ لم تعُد الفيلولوجيا ميدان الدراسة ضمن الرهانات الكبرى للسانيات العامة.

3- ما مكانة التأثيل في تعليمية الألسن؟

يُمكن للتأثيل –بعد تهميشه في مسار اللسانيات (ما عدا حينما يتعلق الأمر بدراسة الفرنسية القديمة)- أن يُصبح أداة فعّالة في تعلّم الألسنة سواء منها الألسنة الأمّ أم الأجنبية. غير أن توظيف هذه الأداة يحتاج إلى الكثير من الحذر.

يَلزم لبلوغ نتائج مُرضية في اكتساب الأدوات الضرورية لتعلم اللسان في أسرع وقت حَصْرُ الأهداف. لذلك نقتصر – ضمن الملكات الأربع المعروفة في هذا المضمار، وهي فهمُ المكتوب والمنطوق والتعبير عنهما معا- على ملكة فهم المكتوب، ويُستحسنُ بدْءا قبل معالجة كيفية استثمار التأثيل في اكتساب اللسانين الأمّ والأجنبي دراسةُ المناهج التقليدية في هذا الموضوع.

يقوم المنهج الأول -ونسميه المنهج العشوائي- على جرد الكلمات الجديدة من النصوص كيفما كان مصدرها وتدوينها في قائمة مستقلّة مزوّدة بأقلّ المعلومات النحوية الممكنة (مثال ذلك من الألمانية: الجنس والجمع للمصادر، والصيغ المختزلة للماضي واسم المفعول (Participe II) للأفعال القوية). يُشار إلى هذه الكلمات أحيانا خطيا، مما يسمح بإحصائها على نحو دقيق وبناء معجم مزدوج في ملاحق التصنيف (للمنقول والمنقول إليه)، مع نسق الإحالة على النصوص.

جرتْ العادة باستعمال هذا المعجم في تمارين الترجمة (لا سيما في المنقول إليه وبشكل أقلّ في المنقول) بغرض تيسير عملية التذكّر وفقا للمبدإ اللاتيني القديم: "التكرار أصل التعلّم" (Repetitio mater Studiorum).

يُعتبرُ المنهج الثاني مدلوليا بالأساس (Onomasiologique)، إذ تُنقل نصوص اللغة الواقعية في ملفات تُقسّم إلى عشرات الفصول، المثال النموذجي لهذا النهج يتمثل في كُتيّبٍ صنّفه "ميشال بريال" (Michel Bréal)، سمّاه ببساطة "كلمات إغريقية" (Mots grecs)، أصدره بمعية كتابه الشهير "بحث في علم الدلالة" (1892) (Essai de sémantique)، وقد قسّمَ الكُتيّب إلى قسمين خصّص القسم الأول لنماذج إعرابية وصرفية، وعنون القسم الثاني ب"كلمات مُصنَّفة تبعا للمعنى". يُعتبر هذا القسم عرضا مدلوليا أصيلا يُبَشِّر بمستقبل زاهر ليس فيما يتصل بتعليم الألسنة الميتة فحسب؛ وإنما أيضا لتعليم الألسنة الحيّة.

تُصَنَّف هذه التآليف على النحو الآتي: كل فصل يتضمّن قوائم كلمات (أسماء وصفات وأفعال) وبنيات تعابيرية (:عبارات اصطلاحية وأقوال وجمل وأمثال)، إضافة إلى تمارين تطبيقية، غالبا ما تُتبعت هاته التصانيف ب: "رصيد معجمي" (Vocabulaire)، وهي كثيرة التداوُل، وتُشكّل مع النحو والكتاب المدرسي الأدوات الضرورية لتعلم اللسان الأجنبي الحي والمنقرض، وهو مع النحو (دون الكتاب المدرسي) يلازم التلميذ طوال مراحل الدراسة.

يستند المنهج الثالث إلى التأثيل، وغالبا ما تمّ اللجوء إليه في تعليم الألسنة الميتة. إنه نهج قديم عُرف بفرنسا يعود إلى تصنيف "لانسلو" (Lancelot) الشهير: "بستان الجذور الإغريقية" (1657) (Jardins des racines greques)، وهو مُصنِّف الكتاب الذائع الصيت: "النحو" بمعية "أرنولد لوكران" (Legrand Arnauld) [أي نحو بور رويال] سنة 1660.

يُبَرّر "لانسلو" في تقديم هذا الكتاب ضرورة اللجوء إلى التأثيل قائلا: "إنّ معرفة الجذور ذات منفعة قُصوى لكل لسان، إنها حقيقة لا يعترض عليها أحد، وهي أساس المنهج الذي استند إليه كلّ العبريين في بناء قواميس اللسان العبري، وقد اقتفى أثرهم "هنري إستيان" (Henri Estienne) في "المكنز الكبير للسان الإغريقي"، وهو أول من أدخل هذا المنهج بهذا اللسان".

إنه كتاب مدرسي (يقع فيما يقرب من أربعمائة صفحة) طُبِع طبعات متعدّدة إلى غاية القرن التاسع عشر، إذ حلّت محله طبعة مُراجَعة أصدرها "بيير لاروس" (Pierre Larousse) الذي أسقط منها مقاطع القافية واحتفظ بجوهر المادة العلمية فقط.

عرَفَ تعلّم اللاتينية (الأكثر انتشارا من الإغريقية) نفس التطوّر، إذ أصدر أحد الخُطباء، وهو "جوزيف فيليي" (Joseph Villier) سنة 1779 مصنّفا يقع في ثلاثمئة وعشرين صفحة يحمل عنوان: "جذور لاتينية" (Racines latines)، وقد صرّحَ بالنموذج الذي اقتفاه في المنهج وطريقة التصنيف والعرض، فقال:

"طبَّقتُ في اللسان اللاتيني نفس النهج الذي طبّقه نُحاة «بورروايال »، صنَّفَ "فيليي" كتابه بإشراف "دي مارسي" (Demarsais) وهو أحد أبرز محرري المقالات اللسانية المتضمّنة بالموسوعة، وصاحب الكتاب الشهير "دراسة عن البلاغة" (Traité de rhétorique). يرى "ديمارسي" : "تسمح التأثيلات بمعرفة قوّة الكلمات وتذكّرها عبر العلاقة القائمة بين الكلمات الأصلية والكلمات المشتقة، علاوة على أنها تساعد على الاختيار المتقن للتعابير". (مقدمة الكتاب).

نورد لشرح هذه الفكرة الأخيرة المناجاة الرائعة التي بثّها "بُوسِيّي" (Bossuet) في كلمته عند تأبين "هنرييت الأنجليزية" (Henriette d'Angleterre)

" Considerez, Messieurs, ces grandes puissances que nous regardons de si bas ": (اعتبروا سادتي هاته القوى العظمى التي نعاينها من أسفل).

تتضمّن كلمة "Messieurs" في تضامّها مع الفعل "Considerez" صدى الكلمة اللاتينية "Sidera" الدالة على: "نجوم المجرّة" والموحية بمعنى "رَفْع الرأس".

اقتدى الكثير من الكُتّاب بعمل "فيليي"، إلى أن عُوِّضَ نهاية القرن التاسع عشر بكتاب "بستان الجذور اللاتينية" ل"بيير لاروس".

استُعمِل هذا المنهج التأثيلي مدّة طويلة بفرنسا لتعليم الألسنة القديمة وبشكل أقلّ في تعلم الفرنسية، وحدها الألمانية أولت التأثيل العناية التي يستحقها في تعليم الألسنة الأجنبية، وهو أمر لا يدعو إلى الاستغراب لأنّ اللسانياتوجدت مرتعا لها بألمانيا طوال القرن التاسع عشر، وولّد ثقافة تأثيلية انتشرت بالجامعة والمدرسة الألمانيتيْن، فأثّر بالتالي في الفرنسيين الدارسين للجرمانية.

إضافة إلى ما سبق، فالتحليل التأثيلي للكلمات الألمانية أيسر منه في الفرنسية لأن الألمانية لا تحتاج إلى جذور أجنبية في عملية تكوين الكلمات كما هو الحال في الفرنسية ؛ وإنما تمتح من رصيدها المعجمي الخاص.

لذلك تُعتبر كلمة "Vocabulaire" غامضة لمن لمْ يدرُس اللاتينية (ف "Vox" يدلّ على "Voix" (: صوت) وعلى "mots" (: Wort) كلمة)؛ بينما كلمة "Wortschat" شفّافة، بدلالتها على "مكنز" (Schatz) الكلمات "Wort".

طبعا يوجد في الفرنسية كلمات مركّبة مكوّنة من كلمات فرنسية أخرى، كما هو الحال في "lave-vaisselle"، غير أن عددها محصور مقارنة مع الألمانية التي تتوفّر على عدد غير محدود من الكلمات المركّبة.

الحال مُخالفٌ في الأنجليزية لأن رصيدها المعجمي متولد من منبعين: لاتيني/ فرنسي، مثال ذلك "liberty" وجرماني مثال ذلك "freedom".

من العبث محاولة تعلم لسان مشابه للسان الأم إذا لم يكن لنا إلمام بدءا باللسان الأم، وذلك لأسباب ثلاثة:

لسبب منهجي، بدهيّ أن المتعلّم يفهم تركيب الكلمات وتفكيكها بلغته الأصلية، وذلك بالتمييز بين الجذر والزوائد. إنها سُنَّة يلزم التعوّد عليها بَدَلَ أن تكون قاعدة تُلَقَّن. بتعبير آخر ، لا يخطر ببالنا أبدا فحص بنية الكلمة التي نُعاينها، لا سيما الكلمة المألوفة لدينا. فبإمكاننا أن نتصفّح قاموسا للبحث عن كلمة "callipyge" (: مُستدير الإست)، لكن لا نفكّر في تفكيك أسماء من مثل: "vicomtesse" (نبيلة) أو "marqui de Beauséant" (مَركيز دي بوسيان).

"Nomen" est "omen" -------- "الرسم هو أوْمن"

وما يسري على أسماء الأعلام يسري كذلك على الأسماء العامة، فكم عدد المتكلمين بالفرنسية المدركين أن كلمة "vinaigre" (الخلّ) هي: "vin+aigre" ----- (الخمرة + حامض)؟

يتمثل السبب الثاني في ضرورة تسجيل الزوائد بذاكرة متعلم اللغة الأم لينجح في إتقان لغته. توجد تصانيف مُميّزة للجذور اليونانية واللاتينية (يراجع "سيلار" (Cellard) على سبيل المثال في قائمة المراجع). غير أنه لم تجر العادة بحفظ قوائم الكلمات. لذلك من الأنسب البحث عن وسائل أخرى لتذكّر السوابق واللواحق الخمسين المشكلة للنواة الصلبة للزوائد بالفرنسية.

يتمثل أبسط هذه الوسائل في اللجوء إلى كلمات مُنتقاة كنماذج. مثال ذلك أنّ السابقة "pré-" في "prévoir" في الفرنسية تجعله يستبعد أمثلة حشوية من قبيل " prévoir à l'avance" (توقّع مُسبقا)، كما تسمح له أيضا بالبحث عن هذه السابقة بلغات رومانية أخرى (كما في prever- / – preveder) وبلغات جرمانية:

كالألمانية: "Vor-seben"

والأنجليزية: "To foresse"

والهولندية: "Woorzien"

يتعلق السبب الثالث في حفظ الجذور، غير أن الجدوى من استظهار جذور اللغة الأم يطرح إشكالا، لذلك يُستحسن تخطي هذه الخطوة، لكن هل نجازف بذلك؟ بما أننا لا نتوفر حاليا على قائمة بالجذور الأكثر تردّدا بالفرنسية يبقى من الصعب حصر النواة الصلبة للجذور اللاتينية واليونانية المكوّنة لوحدات المعجم الفرنسي.

هناك معضلة أخرى في موضوع الجذور وتتمثل في الحدود بين الجذور والزوائد، ذلك أن بعض الأسماء اللاتينية والإغريقية أصبحت مجرّد زوائد بالفرنسية، مثال ذلك: "logos-" الذي اعتُبِر شبه لاحقة (quasi-suffixe) في كثير من الكلمات بمجموعة الألسنة الرومانية والجرمانية.

يظلّ السؤال المطروح بعدما تبيّن أنّ إتقان اللسان الأمّ شرط لازم لتعلم اللسان الأجنبي: كيف السبيل إلى ذلك؟ بالحرص على تفادي الاعتماد على قوائم التأثيل الشعبي و/ أو التأثيل الشعري (يُراجع في هذا الإطار "كلوديل" (Claudel) الذي يُفكّك "connaissance" إلى "co-" و"naissance") ومحاولة الإحاطة الشاملة بالموضوع.

يُمكن إيجاد حلّ وسطي يرتكز على أساسين:

اللجوء إلى "النقل" (Calque)، فحينما يدرك المتكلم الفرنسي بأنّ "***prévoir*** " مكوّنة من " ***pré*** " + "***voir*** ": لا اعتراض على ترجمة اللفظ إلى لسان جرماني (كما سلف الذكر). فإذا استمرّ في هذا النهج على الرغم من صعوباته سيجني ثمارا حسنة بفضل النقل، وتحفيز ذاكرته إذا لم يعثر على البديل بيُسر، أو اللجوء إلى وضع كلمة مع ما يؤدي إليه من خلق مولّدات جديدة (انظر أعلاه).

نقدم فيما يلي أمثلة عن النسخ يسهل تذكّرها:

الألمانية	الأنجليزية	الفرنسية
aus-schlieBen	to ex-clude -- to shut out	ex-clure
(r-)aus-werfen	to e-ject -- to throw out	é-jecter
aus-arbeiten	To e-laborate--to wor kout	é-laborer
aus-sende	to e-mit -- to send out	é-mettre
MiB-trauen	Ø - to mis-trust	Se mé-fier
MiB-verstandnis	Ø - mis-understanding	més-entente
MiB-griff	Ø - mis-take	mé-prise
Misse-tat	mis-deed - Ø	mé-fait
miB-handeln	to mis-handle - Ø	mal-traiter
miB-deuten	to mis-interprete - Ø	mal interpréter
ein-schreiben	to in-scribe - Ø	in-scrire
unter-nehmen	to under-take - Ø	entre-prendre
aus-nehmen	to ex-cept - Ø	ex-cepter

إن توفير مجموعة من أمثلة النماذج البُدائية للمكافئات الصوتية بسيطة ومحصورة العدد لتقوية الذاكرة. من المستحسن بغرض التيسير البدْء بالمكافئات الفرنسية، وفق مقاربة تزامنية تنأى عن توجّه التراث الفيلولوجي، غير أن العمل سيكون دقيقا لارتكازه على القوانين الأصواتية الشهيرة التي صاغها النحاة الجُدد، نقدم فيما يأتي أمثلة عنها:

[يفيد الرمز ---- : التطابق، التكافؤ]

1-l = au : cheval----chevaux ; **chapelier-----chapeau ;** **bordelais-----Bordeaux ;** **sel---- saupoudrer ;** **cervelle----cerveau ;** **castel-château** **donc aussi : Mantel /mantelpiece----manteau /manteau de cheminée**
2-c = ch : canin,canicule----chien ; **Camisole----chemise ;** **castrer----châtrer ;** **castelnau----châteauneuf .** **donc aussi : car----char ;** **Newcastel----Neufchâteau**
3-w =g : warrant-----garant . **donc aussi : wilhelm /william----Guillaume ;** **wales----(pays de) Galles .**
4-st = ét : studieux----étude; **stellaire----étoile ;** **strict----étroit ;** **stagner----étang ;** **stable----étable** **Donc aussi : student----étudiant ;** **Staat----Etat ;** **star/stern/stella----étoile.**
5-sp =ép : spinal-----épine . **donc aussi : to spare/sparen----épargner ;** **to spell----épeler ;** **Spinach/spinat---épinard ;** **spaniel-épagneul .**
6-sp =esp : spacieux----espace ; **spécial----espèce** **donc aussi : Spain----Espagne ;** **species----espèce.**
7-esc =sc : esclandre----scandale ; **escalier----scalaire** **donc aussi : scalla----escalier**
8-v =b : hiver----hiberner ;

fiévreux---fébrille
donc aussi : vasco-----basque ;
haben/haber----avoir ;
love-----lubie/libido/lieben
aventure----Abenteuer
(وقد تولدت الكلمة الألمانية عن الفرنسية)

نسجل في هذا الإطار إلى أن التكافؤات لا تقوم فقط بين ألسنة تنتمي إلى أسرة واحدة؛ وإنما تقوم أيضا بين أسر الألسنة الجرمانية واللاتينية (والسلافية أيضا).

لا نعتبر التأثيل دواءً لكل داء ولا نعتبره مجرّد أداة موروثة من الماضي؛ إنما ينتظره مستقبل زاهر، فهو مفتاح يفتح أبوابا عدّة فيما يتصل باستيعاب دقائق لسان ما، شريطة أن يفهم الفيلولوجيون جيدا ما ينتظرهم وقبولهم الإسهام بمؤهلاتهم في خدمة ديداكتيك لا زال في مراحله الأولى.

- **قائمة المصادر والمراجع:**

° AUROUX, S., 1990, Les notions philosophiques. Dictionnaire, tome II de l'Encyclopédie Philosophique Universel, PUF, Paris.

° AUROUX, S., 1992, Histoire des idées linguistiques, tome 1, La naissance des métalangages en Orient et en Occident, Mardaga, Liège, Bruxelles.

° AUROUX, S., 1992, Histoire des idées linguistiques, tome 2, Le développement de la grammaire occidentale, Mardaga, Liège, Bruxelles.

° BOUFFARTIGUE, J., BLACHON, R, DELRIEU, A. M., 1985, Trésors des racines grecques, Belin, Paris.

° BOUFFARTIGUE, J., BLACHON, R, DELRIEU, A. M., 1985, Trésors des racines latines, Belin, Paris.

° CARRE, I., 1921, Mots dérivés du latin et du grec, Armand Colin, Paris.

° CELLARD, J., 2000 (3e ed.), Les racines latines du vocabulaire français, Duculot-De Boeck, Paris.

° CELLARD, J., 2004 (3e ed.), Les aciness grecques du vocabulaire français, Duculot-De Boeck, Paris.

° DAUZAT, A., 1938, Dictionnaire étymologique, Larousse, Paris.

° DARMESTETER, A.,1886, La vie des mots étudiée dans leurs significations, Delagrave, Paris.

° ECO, U., 1994, La recherche de la langue parfaite, Seuil, Paris.
GARDT, A., 1999, Geschichte der Sprachwissenschaft in Deutschland, W. de Gruyter, Berlin.

° GEYSEN, R.,1985, Dictionnaire des formes analogues en 7 langues avec résumé de grammaire comparée, Duculot, Paris, Gembloux (Belgique).

° HALL, R. A., 1990, A Life for Language. A Biographical Memoir of Leonard Bloomfield. John Benjamins Publishing Company, Amsterdam/Philadelphia.

° LANCELOT,C., MDCCXL, Le Jardin des racines grecques mises en vers françois, chez Thiboust, Paris.

° MATER, E.,1965, Rückläufiges Wörterbuch der deutschen Gegenwartssprache,VEB, Leipzig.

° OLENDER, M., 1989, Les langues du Paradis, Gallimard-Seuil, Paris.

Paris.

Paris.

PLATON, *Cratyle*, trad. de L. Méridier, 1961, Les Belles-Lettres, Paris.

REY, A.,1992, *Dictionnaire historique de la langue française,* le Robert, Paris.

REY, A., 2005, *Dictionnaire culturel de la langue française,* le Robert, Paris.

SAKHNO, S., 2001, *Dictionnaire russe – français d'étymologie comparée. Correspondances lex* L'Harmattan, Paris.

SAKHNO, S., 2005, *100 Racines essentielles du Russe. Découvrir les trésors des mots.* Ellips

VILLIER, J., MDCC LXXIX, *Racines latines à l'usage des écoles royales militaires et* *congrégation de l'Oratoire,* chez J. Barbou, Paris.

WALTER, H., 1994, *L'aventure des langues en Occident. – Leur origine, leur histoire,* R. Laffont, Paris.

Robert,

Robert,

compar
SAKHN
des mot

royales
Barbou,

origine,